زلزال العراق وسياسة التفاصيل

ليسمحْ لي رئيسُ التحرير أن أستعير منه هذه الافتتاحية لأتحدّث عمّا حصل في العراق مؤخّرًا.

لا شكّ في أنّ سقوط العراق بيد قوات الاحتلال الأميركيّ ـ البريطانيّ هو زلزال كبير بجميع المقاييس، لا بمقياس رختر وحده. وحسبُنا أن نقول إنّه قد زَلزل فينا أكثرَ مسلّماتنا، وخلَق لدينا إحباطًا لا نَعْتقد أنّنا سنُشفى منه سريعًا. ذلك أنّ بغداد، بوجه خاصّ، تمثّل في نظرنا تاريخًا كاملاً من الحضارة والثقافة والتراث، هو من أنصع صفحات العرب والعروبة؛ وكنّا على امتداد أيام بطولها نشْهد ـ بعيون وقلوب دامية ـ استباحةً لهذا التاريخ وتحطيمًا لمعالمه وسرقةً لآثاره على يد قوات الاحتلال والمتعاونين معها.

لكنْ لا بدّ من أن نستفيد من ذلك السقوط الذريع دروسًا هاديةً تعيننا على تجاوز المحنة. وأولُ هذه الدروس أنّ مسؤوليةَ ما حدث لا تتعلّق ـ حُكْمًا ـ بالمبادئ الأساسية التي تربّتْ عليها أجيالُنا، وإنّما تقع هذه المسؤولية في الدرجة الأولى على أدعياء تطبيقها. أعْرف أنّ هذا الكلام «دقّة قديمة،» وأنّ قطاعات كبيرةً ممّا يسمّى بالصحافة الثقافية انقضّت بكلّ ثقلها على كلّ تلك المبادئ، رابطةً ربطًا محْكمًا بين العروبة والأنظمة العربية، وبين جوهر فكر البعث والنظام العراقيّ، وبين الاشتراكية وكبت الحريات، وبين التأميم والفساد. تُرى ماذا لو اتّبعنا منطقَ هذه الصحافة، فربطْنا ربطًا لا فكاك منه ما بين الديموقراطية والاحتلال الأميركيّ، وما بين الليبرالية وإفقار الشعوب، وما بين الحرية والاستغلال؟

إنّ مسؤولية المثقفين هي العنايةُ بما سمّاه إدوارد سعيد وغيرُه «سياسة التفاصيل.» لا يجوز أن نَحْكم على مبادئ نهضتنا الأساسية بالفشل، بل يجب أن نبحث أين فشلتْ هذه المبادئ على مستوى التطبيق، وكيف نطوّر مبادئنا لنتفادى اختلالات التطبيق، كيْلا يطاحَ بكلّ وجودنا، فنغدوَ أذلاّء أمام الإدارة الأميركية، أيتامًا على مائدة اللئام العرب الجدد ـ أدعياءِ الديموقراطية والليبرالية والحرية. ومن هنا نحاول، في الآداب، أن نَبحث في تفاصيل «العروبة الجديدة،» فبدأنا بملفّ الرقابة العربية (صدر منه جزءان وسيتمّ استكمالُه قريبًا بالرقابة في المغرب والأردن والسعودية)، ثم تطرّقنا إلى ملفّ العلاقات العربية الداخلية (صدر منه جزءٌ واحد يُعنى بالعلاقات اللبنانية ـ السورية وسيُستكمل قريبًا بالعلاقات الجزائرية ـ المغربية، والمصرية ـ السودانية). وقريبًا سنعالج أمورًا ذات أهمية استثنائية في إحباط مسيرة الفكرة القومية في نفوس الشعب العربيّ: كدوْر الانقلابات العسكرية، والتوحيد القسريّ بين الدول العربية، والقمعِ الذكوريّ.

نعم. هناك مَنْ يصرّ على أنّ القومية العربية ماتت (كما كتب فؤاد عجمي ذات يوم)، وأنّ المقاومة العربية اندثرتْ إلى غير رجعة. ولكنّنا نذكّر الشامتين بأنّ آلاف المتطوّعين العرب الذين قاتلوا إلى جانب العراقيين، وبأنّ ملايين العرب الذين خرجوا إلى الشوارع انتصاراً للعراق وفلسطين، يُثْبتون أنّ القومية العربية لم تنته. ونذكّرهم أيضًا بأنّ مقاومة الفدائيين الفلسطينيين، والمقاومةَ العراقية في أم قصر ثم في الفالوجة وغيرهما، تُثبت أنّ المقاومة العربية لم تنته ولن تنتهي، وأنّ الأمة العربية ماتزال تملك طاقةً هائلةً من الإرادة والعزيمة على مواصلة النضال.

إنّ الأصوات التي تدعو إلى الانهزام أيًا كان شكلُه (أقبولاً بالحلّ «السلميّ،» أم خضوعًا لاشتراطات البنك الدوليّ،...) ليست أقلّ خيانةً لدور المثقف من تلك الأصوات التي باركت الدكتاتوريات العربيةَ وتغاضت عن الطغيان العربيّ وعن تحالف هذا الطغيان مع الولايات المتحدة الأميركية. وإنّ التباهي بالانتصارات «الصحّافية» ليس أقلّ مدعاةً للاستنكار من إدانة بعض مثقفي الصحافة لأعمال المقاومة ووصْمها بالجانية والانتحار، ووصْم تاريخنا الحديث برمّته بأنّه كان «من أجل لا شيء!»

إنّني، وبعد عمل ثقافيّ يزيد على نصف قرن عاصرتُ خلاله جميعَ أنواع الاستعمار الذي عمّ وطنَنا العربيّ من مشرقه إلى مغربه، بدءًا بالاستعمار التركيّ ومرورًا بالفرنسيّ والبريطانيّ والصهيونيّ وانتهاءً بالاستعمار الأميركيّ والبريطانيّ للعراق الحبيب، ليس لي إلاّ أن أدعو أبنائي وأحفادي إلى أن يتمسّكوا براية الكفاح، وبراية التصحيح والنقد معًا. المهمّ هو أن لا يَدَعوا لليأس مطرحًا من قلوبهم؛ فالمقاومة هي قدرُنا ـ بل شرفُنا ـ الأعلى، واليأسُ هو عدوّنا الأول والأخير.

سهيل إدريس